

الرباط وبعده الثقافي والعلمي لمدينة وهران

أ/ خديجة موصدق
جامعة وهران

لا شك أن الدارس لواقع الجزائر في أواخر العهد العثماني، يتضح له أنها قد عرفت تغيرات ملحوظة وبالأخص منطقة وهران التي كانت تحت الاحتلال الإسباني ، وما آلت إليه بعد استكمال الفتح الثاني لها سنة 1792م ، وتلك التغيرات بالدرجة الأولى من الناحية العسكرية ثم السياسية ثم الثقافية.

ونحن في محاضرتنا هذه، سنخرج على الجانب الثقافي والحركة العلمية في تلك المنطقة، وإسهام العلماء والشيوخ في نضج الفكر الوهراني -إن صح التعبير- معتمدين في ذلك على الدور الفعال الذي لعبه الرباط فيه، وخصوصا الطلبة الذين توافدوا من منطقة معسكر مشبعين بجميع أنواع العلوم.

بداية نعطي موجزا عن مفهوم الرباط، بعدها لمحة سريعة عن تاريخه وصولا إلى إنشائه بمنطقة وهران، ثم نتحدث عن دوره الأساسي في هذه المنطقة، والشيوخ الذين ترأسوه، والطلبة الذين كونوه وتكونوا فيه ، والعلوم التي تدارسوها، وكيف أسهم في التغذية الفكرية.

مفهوم الرباط : الرباط أصلها من ربط الخيل، واللفظة مأخوذة من الربط، مصدر رابط يربط، بمعنى أقام ولازم المكان.

الرباط : معناه الإقامة في الثغر بإزاء العدو، والثغور هي منافذ ينطلق منها العدو، ومن الواجب أن تحصن هذه الثغور تحصينا منيعا كي لا تكون جانبا ضعيفا يستغله العدو ويجعله له (1)، وكذلك تطلق على الأماكن التي تؤسس لاجتماع المنقطعين لله والمتعبدین الذاكرين، وكذلك على المعتكفين لتعلم الدين وأصوله

وأحكامه وعلومه وغيرها من العلوم. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، سورة آل عمران، الآية : 200.

وقال صلى الله عليه وسلم: «كل ميت يختم على عمله إلا الذي مات مرابطا في سبيل الله ، فإنه يمنى عمله إلى يوم القيامة و يأمن فتنة القبر »، رواه أبو داود. يعني كل إنسان ينقطع عمله عنه ولا يصل إليه ثواب إلا المرابط يزداد عمله وينمو.

فالآية الكريمة والحديث الشريف دالان على اهتمام الإسلام بالرباط والترغيب فيه.

ويروي لنا التاريخ عن الرباطات التي كانت سائدة، منها رباط جدة وهو من أعظمها⁽²⁾، كما اشتهرت رباطات المتعبدين في بلاد الإسلام منذ الفتح، وقويت لما اشتدت الحروب الصليبية وغاراتها على شواطئ المغرب العربي، وغارات البرتغال والإسبان على قواعد البلاد الإسلامية بشواطئ شمال أفريقيا. ولم تقتصر على ذلك، بل كوّنت عصابات متعاونة مع الإسبان إبان احتلالهم لوهران، كانوا معروفين بالمغاطس، مهامهم اختطاف أطفال المسلمين، ونقل الأخبار للإسبان، وتواصلهم كان عبر البحر عادة. من أجل هذا كثر الربط على مدى شواطئ البلاد، وكان يشرف عليه ويؤسسه علماء الدين، ومن بين هذه الرباطات، رباط ماسة جنوب المغرب الأقصى، ورباط شرشال ، ورباط وهران ، ورباط ندرومة ، ورباط جبل أرزيو⁽³⁾.

فرباط وهران اشتهر بما يسمى رباط صلب الفتح في عهد ملوك دولة المرابطين، تاشفين بن الملك علي بن يوسف بن تاشفين، لما كانت الحرب قائمة بينهم وبين الموحيدين.

أما رباط جبل أرزيو فهو بقرب مدينة أرزيو وله ثلاثة قلاع مسورة.

تطورت هذه الرباطات بصورة جلية بعد الاحتلال الاسباني لمدن سواحل المغرب العربي وكان جلها يؤسسه ويشرف عليه علماء الدين، لأن الأصل في إنشائها كان للعبادة وتعلم أمور الدين.

وقبل الانتقال للحديث عن دوره الثقافي، يجب أن نفرق بينه وبين الزوايا فلكل خصوصياته. إذ أن الرباط كان موجودا منذ الفتوحات الإسلامية، أما الزوايا فقد عرفت في أوائل القرن الثامن الهجري، وهي ملتقى الطلاب، ومكان العبادة، وإيواء عابري السبيل، وهي في المغرب العربي تخص طرق الصوفية ، يجتمع فيها طلابها من أجل الذكر والابتغال، وهي تخضع لتصرف شيخ الطريقة أو مقدميه، كما كان لها دور عظيم في شد أزر الرباط في أوقات الحرب.

دور الرباط الثقافي لمدينة وهران : للحديث عن دور الرباط الثقافي، مع العلم أن دوره الأكبر والأعظم كان متعلقاً بتحرير وهران من الإسبان – الأول والثاني – يلزم علينا الحديث عن شيوخه وعلمائه فقد كان للعلماء الدور العظيم في نبذ الاحتلال الإسباني، لأنهم كانوا من أوائل من عارض هذا الاحتلال ، ولأن أغلب الثورات قادها هؤلاء ، فكانت دار علم ، كما جاء في الشعر الجماني⁽⁴⁾.

نذكر منهم أبو عبد الله محمد بن محرز بن محمد الوهراني، الملقب " ركن الدين " ، الشيخ الفقيه أبو تميم الواعظ ، اشتغل بعلم التذكير، وأبا القاسم عبد الرحمن بن عبد الله الوهراني.

مع العلم أن الرباط كان يجمع طلبة العلم فيشتغلون فيه بقراءة القرآن والفقه والنحو، لا يتركون ذلك إلا في أوقات القتال، وبالليل يبيتون يتلون القرآن الكريم لا يفتررون عنه إلا نحو الساعتين من أوقات النوم .
فمتى استيقظ النائم وجدهم على حالتهم تلك وسمع التلاوة من كل ناحية من الوادي ، فكانوا كما قيل:
"رهبان بالليل وأسودا بالنهار" .

وهؤلاء الطلبة توافدوا على الرباط من مختلف المناطق وعلى رأسها معسكر، وخصوصا خلال حكم الباي محمد بن عثمان الكبير الكردي، الملقب بالأكل لسمرته، وبالكبير إكراما له عندما فتح وهران الفتح الثاني. هو من مواليد مليانة فيما بين (1739 / 1745م). كان غزير العلم ومن المهتمين بالأدب والشعر والعلوم الشرعية، والطب والفنون العسكرية والسياسية، يجيد الحديث باللغتين الإيطالية والفرنسية، أصبح بايا ببايلك الغرب (1779 - 1797م) ومعسكر عاصمة له. كانت هذه المنطقة تستقطب العديد من كبار العلماء والفقهاء من كل المناطق، وتأسس بها " جيش الطلبة " يضم الطبقة المثقفة ، الذي كان له الدور في الفتح الثاني لوهران سنة 1792م ، فانتقلت العلوم والثقافات مع هؤلاء – جيش الطلبة – إلى وهران.

أنجبت مدينة معسكر، وسهل غريس ، والوطن الراشدي علماء أجلاء وفقهاء، ومحدثين ومقرئين ومؤرخين، وكتاب السير والشعراء والرحالة، وبرزت عائلات بحالها توارثت العلم والوظائف العلمية كالقضاء والإفتاء والإمامة والخطابة والتدريس. واهتم هؤلاء بتأسيس الزوايا للتعليم والتدريس والإقراء والإفتاء وهي عديدة نذكر منها : " المدرسة المحمدية " التي كانت تجمع بين المدرسة والزوايا والرباط.

المدرسة المحمدية : أسسها محمد بن عثمان الكبير، لتكون مصدرا لنشر التعليم في المنطقة، وجعلها بجميع الوسائل التعليمية من مكتبة، وقاعات للمطالعة والدروس، ومبيت للطلبة.

أما مشايخها، نذكر منهم : الشيخ محمد بن عبد الله الجليلي، الذي ولاه الباي تسيير شؤون المدرسة، ثم رئاسة الرباط فيما بعد. وسمي الجليلي نسبة إلى جده أبو جلال، نشأ فيها رحمه الله بين علم يقتبسه وأدب يلتسمه، كما جاء في الثغر الجماني ، رحل إلى فاس والتقى بعلمائها ، وارتحل إلى الحجاز والتقى بعلمائها، ثم عاد إلى أرض الوطن للقيام بواجباته.

كما عين الباي محمد بن عثمان لمساعدته، قاضي القضاة السيد الطاهر بن حواء، وكاتبه الخاص السيد محمد بن المصطفى بن زرقة الدحاوي، من أشرف غريس ، شارك فيما بعد في تحرير مدينة وهران. كلفه الباي بجمع الحوادث عن هذا الفتح وتسجيلها أول بأول فجمعها في كتاب سماه " الرحلة القمرية في السيرة المحمدية " وأنهاه عام الفتح نفسه 1206 هـ - 1792م، وهذا الكتاب كان مخطوطا ثم تم تحقيقه وجعلت الدراسات عليه، كما أن الشيخ كان من ضمن تلامذة الشيخ العلامة أبي راس الناصر المعسكري، ولقد لخص هو هذه الرحلة القمرية وقدمها في بحث لمؤتمر المستشرقين بالجزائر عام 1905م، ونشر هذا البحث في وقائع المستشرقين. ولابن زرقة كتاب آخر سماه " الاكتفاء في حكم جوائز الأمراء والخلفاء " موضوعه صحة منح الأمراء والخلفاء أراضي للناس من أجل تعميرها، بعد تحرير وهران عين بن زرقة قاضيا بها حتى توفي بوباء الطاعون عام 1225 هـ (1801-1800م) (5).

وقد تحولت المدرسة المحمدية فيما بعد إلى رباط أيام الفتح إذ خرج علماءها للجهاد بأمر من الباي محمد بن عثمان الكبير، بعد أن جاءه الأمر من والي الجزائر محمد باشا المجاهد، فجمع قبائل العرب وكان ملتقى طلبة العلم بجبل مائدة، المطل على وهران. فكانت الحرب، ثم تلتها الهدنة لمدة شهر ولكن وقعت الخديعة والغدر من الإسبانيين وحملوا راية الحرب على المسلمين فطار الخبر إلى الباي محمد بن عثمان الكبير فنادى للجهاد وأجابه عامة الناس وبني راشد وبني عامر وسويد وأشرف غريس وعلمائها(6)، فكان جبل المائدة قلعة عسكرية، وزاوية، ومدرسة متنقلة، فقد جاء في الثغر الجماني عن المدرسة " مكتفيا بالمدرسة التي كاد العلم أن ينفجر من جوانبها، وحسب ما عليه خزانة كتب هي في البيت التي بناها لأجلها"(7).

أما عن تجهيز الرباط بالطلبة، والذي سمي فيما بعد بجيش الطلبة، فكانت الوسيلة لذلك أنه تم تجهيز ست طلبة وألبسوا لباسا جيدا ودفع لهم العدة، ثم توجهوا لجمع الطلبة وترغيبهم في الرباط. فلم تمض إلا أيام قلائل حتى قدموا من مختلف الجهات، فاجتمعت الأعداد وتزايدت الجيوش وهم منشغلون بقراءة القرآن والفقه والنحو.

وهكذا كان هذا الرباط الوهراني ملتقى طلبة العلم من مختلف المناطق والمدارس والزوايا ، كمدرسة الشيخ أبو راس ، وزاوية القيطنة ، ومن فقهاءها- كما ذكر الشيخ عبد الله الجيلالي - العالم الفقيه الذي أوكلت إليه مهمة قيادة الرباط والمفتي والقاضي الطاهر بن حواء، ومحمد المصطفى عبد الله بن زرقة ، الذي كلف بتدوين كل الأحداث ، ومحمد علي أبو طالب المازوني (عالم مازونة) الذي وصل إلى معسكر على رأس 200 طالب توجه بهم فيما بعد إلى وهران، وأحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي كاتب الباي، وكانوا كلهم من الأعيان وأكابر العلماء.

وبهذا وصل عدد الطلبة أو جيش الطلبة كما سمي ما يفوق 500 طالب ، ولما كثر عددهم وزعوا إلى دواوين فاق عددها المائة ديوان ، ووفر لهم الباي جميع وسائل العيش والسلاح.

كما أن العلاقة بين العلماء والطلبة لعبت دورا حاسما في رفع المعنويات، فلم تكن علاقة حاكم بمحكومه أو قائد بجنده، وكان العلماء هم من يتصدرون الجيش، حتى أنه استشهد فيها الطاهر بن حواء.

فهذه كانت صورة حياة لجيل المثقفين في ذلك العصر، هذا الجيل الذي ترك بصماته في التاريخ من جوانبه العدة ، العسكري والسياسي ، والثقافي، هذا الأخير – الجانب الثقافي – الذي استنتجناه من خلال معطيات الأحداث، وهذه المعطيات نوردتها كالتالي :

- إن الرباط يكون أيضا لطلب العلم والتعبد ، لا للجهاد فقط.
- كان تحت إمرة الباي محمد بن عثمان الكبير، وقد تمت ترجمة لحياته نستخلص منها أنه كان من خيرة العلماء، محبا للعلم.
- قائد الرباط الشيخ عبد الله الجيلالي ، هو أيضا فقيه وعالم وشيخ.
- الطاهر بن حواء قاض القضاء.
- مصطفى بن زرقة الكاتب، والذي ألف كتابه "الرحلة القمرية" التي تحدثت عنه كما سبق عن معركة وهران، فهو إذن مؤرخها، فقد أضاف للتاريخ مصدرا يرجع إليه للنظر في مصداقية أحداث التاريخ.
- الطلبة :كان جلهم حفظ القرآن ودرسوا الفقه والنحو والأدب وجميع أنواع العلوم.
- هذا الرباط كان ملتقى مختلف المناطق: يعني أنه ملتقى الثقافات وتبادلها، من الشيوخ ومن الطلبة ناهيك عن الشيوخ الذين قدموا هم أيضا من مناطق مختلفة.

- عدم اكتفاء الطلبة بواجب الجهاد فقط ، بل كانوا يتدارسون القرآن والعلم ليلا، فكان نومهم قليل وعملهم كثير.

كل هذه المعطيات وغيرها كانت من أسباب التطور الثقافي والعلمي لمدينة وهران، فبعد أن زال الإحتلال الإسباني، بقي من بقي في وهران ، ورحل من رحل، فمن بقي ليس فقط من سكان وهران، بل ممن جاء من المناطق الأخرى، فجاء بعلمه فنفع وانتفع، ومن رحل أخذ من علم وهران إلى مدينته فكان سببا في تبادل الثقافات.

أما الذين بقوا من أبنائها وغيرهم ساهموا بشكل كبير في التعليم وتدريس العلوم، حتى الجديد منها بعد أن جمعهم أرض واحدة.

وقد ألقت كتب كثيرة عن الرباط ودوره في وهران، وهذه الكتب كان مصدرها من عاش أحداثها كابن زرقة الذي ألف كتابه عن الرباط، وغيره من المؤلفات ، بهذا العمل أضاف إلى الموسوعة الثقافية لمدينة وهران كتابا جديدا في التاريخ.

حتى أن طلبة القرآن ورجال العلم بمدينة وهران، كانوا يحيون ذكرى هذا الرباط سنويا، إلا أنه ولطول العهد كادت تنسى أسبابه وبقي يحيى احتفاله إلى غاية الحرب العالمية الثانية، وكثيرا ما كان يرأسها عالم وهران الشيخ الطيب المهاجي⁽⁸⁾.

الخاتمة :

في الأخير لا يسعنا إلا أن نقول أن هذا الرباط كان بركة على أهل وهران، فنقول ما قاله بن زرقة في كتابه " يكون فتح وهران على يد الصالحين من طلبة وعلماء، تبركا بأهل العلم لفتح الأقفال المستعصية"، ونحن نعتقد أن هذه الأقفال منها قفل العلم، فتحوه بإخلاصهم لله تعالى وإيمانهم القوي بما يفعلون.

الهوامش والمراجع

- (1) سيد سابق، ت "محمد ناصر الدين الألباني ، مؤسسة ، ط 1424 هـ 2003م ، مج 3 ص 93
- (2) تاريخ مدينة وهران من الاحتلال الاسباني، خلال القرن الثامن عشر ميلادي من خلال مخطوطين، الجزء الأول، فتح مدينة وهران، الجزء الثاني الرحلة القمرية لابن زرفة، ت: مختار حساني ، جامعة الجزائر، مخبر المخطوطات، 2003 ، ص 240.
- (3) مجلة الأصالة العدد 13، سنة 1393 هـ ، 1973 م ، الرباط والفداء ، المهدي البوعبدلي ص 19.
- (4) الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، احمد سحنون الراشدي ، ت : المهدي البوعبدلي ، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية ص 187.
- (5) أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة : يحي بوعزيز، دار الغرب الإسلامي، ط 1 ، 1995، ج 2 ص 233.
- (6) تاريخ الجزائريين قيام الدولة الفاطمية ونهاية ثورة الأمير عبد القادر ، عن كتاب التاريخ ، القسم الثاني وجزء من القسم الثالث أبو عبد الله الأعرج السليمان ، ت مختار حساني ، المكتبة الوطنية الجزائرية ، ص 224.
- (7) الثغر الجماني ، ص 127.
- (8) مجلة الأصالة العدد 13 ص 30.

